

فَصْلٌ

فِي أَمْرِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ الَّذِي نَهَى اللَّهُ رَسُولُهُ أَنْ يَقُومَ فِيهِ، فَهَدَمَهُ ﷺ

وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَبُوكَ حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةً، وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ أَنْوَهُ وَهُوَ يَتَجَهُ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَدْ بَيَّنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلْمَةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمُطِيرَةِ الشَّاتِيَّةِ، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتُصْلِيَ لَنَا فِيهِ. قَالَ: إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالٍ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِيمَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا تَأْتِنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ، فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَانَ جَاءَهُ حَبْرُ الْمَسْجِدِ مِنَ السَّمَاءِ، فَدَعَا مَالِكُ بْنُ الدَّخْشَمَ، أَخَا بَنِي سَلَمَةَ بْنِ عَوْفٍ، وَمَعْنَى بْنِ عَدِيِّ الْعَجَلَانِيِّ، فَقَالَ: انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمُهُ وَحَرِّقُهُ، فَخَرَجَا مُسْرِعَيْنَ حَتَّى أَتَيَا بَنِي سَلَمَةَ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمْ رَهْطُ مَالِكَ بْنِ الدَّخْشَمَ، فَقَالَ مَالِكُ لِمَعْنَى: أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ بِنَارًا مِنْ أَهْلِهِ، وَدَخُلُّ إِلَى أَهْلِهِ، فَأَخْذُ سَعْفًا مِنَ النَّحْلِ فَأَشْعَلُ فِيهِ نَارًا، ثُمَّ خَرَجَا يَسْتَدِّنَ حَتَّى دَخَلَاهُ وَفِيهِ أَهْلُهُ، فَحَرَّقَاهُ وَهَدَمَاهُ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفُرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ [التوبَة: 107] إِلَى آخرِ الْقِصَّةِ.

وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ الَّذِينَ بَنُوا، وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، مِنْهُمْ ثَلْبَةُ بْنُ حَاطِبَ.

وَذَكَرَ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ الدَّارِمِيِّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ: حَدَّثَنِي مَعاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفُرًا: هُمْ أَنْاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ابْنُوَنَا مَسْجِدًا، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو عَامِرٍ: ابْنُوَنَا مَسْجِدُكُمْ وَاسْتَمْدُوْنَا مَا اسْتَطَعْنَا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ سِلَاحٍ، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ، فَآتَيَنِي بِجُنُدٍ مِنَ الرُّومِ، فَأَخْرُجُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ مَسْجِدِهِمْ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ فَرَغْنَا مِنْ بَنَاءِ مَسْجِدِنَا، فَنُحِبُّ أَنْ تُصْلِيَ فِيهِ وَتَدْعُو بِالْبَرَكَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ Y: لَا تَقْمُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى النَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ يَعْنِي: مَسْجِدٌ قِبَاءً أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ إِلَى قَوْلِهِ: فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ [التوبَة: 108، 109] يَعْنِي: قَوَاعِدَهُ لَا يَرَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنُوا رِبِّيَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ يَعْنِي: الشَّكَّ إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ [التوبَة: 110] يَعْنِي: بِالْمُوتِ.

الطالب: في الحاشية: عبد الله بن صالح هو كاتب الليث، ضعيف، وعلى ابن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى ذكره: لا يزال بناؤه هؤلاء الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ريبة، يقول: لا يزال مسجدهم الذي بنوه ريبة في قلوبهم، يعني: شگاً ونفاقاً في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين، إلا أن تقطع قلوبهم، يعني: إلا أن تتصدع قلوبهم فيما توصلوا، والله عليم بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار من شگهم في دينهم، وما قصدوا في بنائهم وأرادوا، وما إليه صائر أمرهم في الآخرة، وفي الحياة ما عاشوا، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم، حكيم في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه.

الشيخ: وهذا من جنس أفعال المنافقين، المنافقون أعمالهم الخبيثة كثيرة، ولكن الله أبطل كيدهم، وأضل سعيهم، وباعوا بالخبيثة والخسران، وفضحهم الله، ومن ذلك عملهم في هذا المسجد الذي ليسوا فيه وقالوا للنبي: إنهم أرادوا به الضَّعيف والمسكين وأصحاب الحاجة، وفي الليلة المطيرة، وأشباه ذلك، وهم قصدوا به إرصاداً لمن حارب الله ورسوله، جعله حصنًا له يأوي إليه، وهو أبو عامر الراهن المعروف، الذي فرَّ من الإسلام إلى مكة، ثم إلى الروم، ويُقال له سابقًا: الراهن، فلما كفر بالحق قيل له: أبو عامر الفاسق الضال، فضحهم الله، وأنزل في مسجده ما أنزل، وهدمه النبي ﷺ، وبين ضلالهم، وهكذا المساجد التي تُبنى على غير وجه شرعي يجب أن تُزال وتهدم، وألا تُبنى إلا على الوجه الشرعي.

المقصود أنَّ الله جلَّ وعلا فضح المنافقين في مواضع كثيرةٍ من أعمالهم الخبيثة، فذلك منه جلَّ وعلا نصراً لنبيه، وتأييضاً لنبيه، وفضيحة لأعدائه، وهذا يقول جلَّ وعلا: وَلَيُنْصَرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه [الحج: 40]، ويقول جلَّ وعلا: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُولُونَ إِنَّا لَنَنْصُرُ إِنَّمَا الْأَشْهَادُ [غافر: 51]، ويقول جلَّ وعلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُئْتِيَكُمْ أَفْدَامَكُمْ [محمد: 7]، فالمؤمنون إذا استقاموا ونصروا دين الله نصرهم الله وأيديهم وإن قلوا، وإنما يؤخذ الناس بذنبهم وسيئاتهم وتفریطهم: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَإِنَّمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوْ عَنْ كثِيرٍ [الشورى: 30].

فالواجب على المؤمن أن يُراقب الله، والواجب على كل مسلم، وعلى كل مُكَلَّفٍ أن يتَّقي الله، وأن يُراقب الله فيما يأتي ويدرك، وأن يحذر عقوبة الله العاجلة والآجلة، ولا يحسبَ الله تخفي عليه خافية، إِنَّ اللَّهَ جلَّ وعلا يعلم ما تخفي الصدور: إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [آل عمران: 119].

فالواجب الحذر من مغبة السينات والأعمال الخبيثة، والله يقول سبحانه: وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ [آل عمران: 28]، ويقول جلَّ وعلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذِّرُوكُمْ [النساء: 71]، فلا ينبغي للعقل أن يغترَّ بما يتظاهر به بعضُ الناس حتى يسبر الأمر وينظر، حتى تبين المصلحة، وحتى تندفع المفسدة.

س:؟

ج: مسجد قباء ومسجد النبي، كلاهما، مسجد قباء تُبني على التَّقوى من أول يوم، ومسجد الرسول من باب أولى؛ ولهذا قال لما سأله قال: مسجدي هذا يعني: مسجدي ومسجد قباء كلاهما أُسس على التَّقوى.

.....

فصلٌ

فَلَمَّا دَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ خَرَجَ النَّاسُ لِتَأْقِيَهُ، وَخَرَجَ النِّسَاءُ وَالصِّبِيَّانُ وَالوَلَادُ يَقُولُونَ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنَيَاتِ الْوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهَ دَاعِ

وَبَعْضُ الرُّوَاةِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ مَقْدِمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ مَكَّةَ، وَهُوَ وَهُمْ ظَاهِرُونَ؛
لَأَنَّ ثَنَيَاتِ الْوَدَاعِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ، لَا يَرَاهَا الْقَادِمُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا يَمْرُرُ بِهَا إِلَّا إِذَا
تَوَجَّهَ إِلَى الشَّامِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: هَذِهِ طَابَةُ، وَهَذَا أُحْدُ، جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ.

الطالب: متفق عليه من حديث أنسٍ.

الشيخ: طابة من أسماء المدينة، طابة وطيبة من أسماء المدينة، وفي هذا دلالة على أن بعض البقاع
والجبال لها إحساس في حب الله ورسوله: هذا جبل يحبنا ونحبه، الله يجعل فيها ما يشاء [I].

س:؟

ج: مثلكما سمعت، الله أعلم.

فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ العِبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْدُنْ لِي أَمْتَدِحْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُلْ لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَالَّكَ،
فَقَالَ:

مِنْ قَبْلِهَا طَبَّتِ فِي الظِّلَالِ وَفِي

ثُمَّ هَبَطَتِ الْبِلَادَ لَا يَشْرُ

بِلْ نُطْفَةً تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ

تُثَقَّلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِيمٍ

حَتَّى احْتَوَى بَيْتَكَ الْمُهَيْمِنُ مِنْ

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الْ

فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الصِّيَّابِ وَفِي النَّ

الشيخ: ما عَلَقَ بشيءٍ؟

الطالب: نسبة إلى "المستدرك"، والبيهقي في "الدلائل" فيما ذكره الحافظ فقط.

فَصَلْ

وَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ بَدَا بِالْمَسْجِدِ، فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَجَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفَقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضُعْفَةٍ وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِيلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَبَأْيَهُمْ، وَاسْتَغْفَرُ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ.

وَجَاءَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ الْمُغْضَبُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: تَعَالَ، قَالَ: فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَقَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهَرَكَ؟! فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ لَرَأَيْتُ أَنْ أَخْرُجَ مِنْ سَخْطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أَعْطَيْتُ جَدَلًا، وَلِكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ إِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَلَيَّ، لَوْيُشَكَّنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ عَنِّي، وَاللَّهُ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهُ مَا كُنْتُ قَطُّ أَفَوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَحَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُلْمَ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ، فَقُلْمَتُ.

وَثَارَ رَجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي يُؤْتَبُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَلَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِلُكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ! قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَلْوَا يُؤْتَبُونِي حَتَّى أَرْدَثْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ فَالاً مِثْلَمَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَمَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِي، وَهَلَلُ بْنُ أَمِيَّةِ الْوَاقِيِّ. فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحِيْنِ شَهِيْدًا بَدْرًا، فِيهِمَا أَسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ دَكَرُو هُمَا لِي.

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا التَّلَاثَةِ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَبَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالَّتِي أَعْرَفُ، فَلَبِثْتُ عَلَى ذَلِكَ حَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبَكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشْبَ أَقْوَمَ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشَهُدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطْوُفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ.

الشيخ: وفي هذا دلالة على عظيم طاعة الصحابة للرسول ﷺ، وعناتهم بالسمع والطاعة، لما أمرهم بهجر الثلاثة اجتنبوهم و هجروهم، فدل على كمال الإيمان، وقوة الإيمان، والعنابة بالسمع والطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي ذلك حكمة: حتى يرتفع الناس عن إظهار المعاصي والإصرار عليها، وأنّ صاحبها على خطير.

وفي ذلك من الفوائد: أنها وإن عظمت فإنَّ الله يمحوها بالتوبة الصادقة، فهو لاءٌ تاب الله عليهم، وربحوا الدنيا والآخرة، وأولئك المخالفون الكاذبون خسروا الدنيا والآخرة، نسأل الله العافية.

فالواجب الصبر على الحق وإن كانت فيه غضاضة، لا بد من الصبر على الحق والثبات عليه، وإن أصابك ما أصابك، والحدر من الباطل، وإن تزخرفت به الدنيا، وحصل به ما قد يحصل لأهل الدنيا، فالحق أحق بالاتباع وأولى، والعاقبة لأهل التقوى، كما قال تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [هود:49]، فهو لاءٌ جعل الله لهم العاقبة الحميدة، وأنزل فيهم: وَعَلَى الْتَّلَاثَةِ الَّذِينَ حُلِّفُوا [التوبه:118]، وأولئك باعوا بالخيبة والخسارة، نسأل الله العافية.

وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمَ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطْوَفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَأَتَيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلِمْ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَقَتِي بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصَلَّى قَرِيبًا مِنْهُ، فَأَسَارَ قُوَّةَ النَّظَرِ، فَإِذَا أَقْبَلَتْ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا النَّفَّتْ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جُفُونِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ حِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَ عَلَيَّ السَّلَامُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكِ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعَدْتُ فَنَاشَدَنِي فَسَكَتَ، فَعَدْتُ فَنَاشَدَنِي فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّتْ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطَيْ مِنْ أَنْبَاطِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدَمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَذْلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِيقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَانَ، فَإِذَا فِيهِ: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ بِلَعْنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارَ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةً، فَالْحَقُّ بِنَا تُؤَسَّكَ"، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْنَاهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُورَ فَسَجَرْتُهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَرَلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أَطْلُقُهَا أَمْ مَاذَا؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ اعْتَرَلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلْ إِلَى صَاحِبَيِّ مِثْلِ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِّي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِي اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هَلَالَ بْنِ أَمِيَةَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَلَالَ بْنَ أَمِيَةَ شَيْخُ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرِهُ أَنْ أَخْدُمْهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرُبُكِ، قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُذْكُونَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

قَالَ كَعْبٌ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هَلَالَ بْنِ أَمِيَةَ أَنْ تَحْدُمَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِيَنِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنَهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌ.

وَلَيْلَتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمْلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى سَطْحِ بَيْتِي مِنْ بُيُوتِنَا، بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحْبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، فَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ

فَرَحُّ مِنَ اللَّهِ، وَأَذَنَ رَسُولُ اللَّهِ بِتُوبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَا، وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبَيِّ مُبَشِّرَوْنَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعَ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى ذِرْوَةِ الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ.

فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثُوبَيَ فَكَسَوْتُهُ إِبَاهُمَا يُبَشِّرَاهُ، وَاللَّهُ مَا أَمْلَأُ غَيْرَهُمَا، وَاسْتَغْرَثُ ثَوَبَيْنِ فَلَيْسُهُمَا، فَانْطَلَقْتُ إِلَيْ رَسُولِ اللَّهِ، فَتَنَقَّلَنِي النَّاسُ فَوْجًا يُهَنْئُونِي بِالتُّوبَةِ، يَقُولُونَ: لِيَهُنَّكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ.

قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يُهَرِّوْلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهُ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلَسْنُ أَنْسَاهَا لَطْلَحَةَ، فَلَمَّا سَلَمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتَكَ أُمَّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا سُرَّ اسْتِنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرَفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تُوبَتِي أَنْ أَخْلُعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ: فَإِنِّي أَمْسِكْ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْرٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا تَجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تُوبَتِي أَلَا أَحِدَثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِي هَذَا مَا أَبْلَاهِنِي، وَاللَّهُ مَا تَعْمَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَى قَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُوِّنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [التوبَة: 117-119]، فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ نِعْمَةً قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامَ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبِيًّا فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، قَالَ: سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ إِلَى قَوْلِهِ: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [التوبَة: 95-96].

قَالَ كَعْبٌ: وَكَانَ تَحْلُفَنَا أَيُّهَا التَّلَاثَةَ عَنْ أَمْرٍ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ قَبْلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَأْيَعُهُمْ وَاسْتَغْرَفَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ: وَعَلَى التَّلَاثَةِ الَّذِينَ حَلَفُوا [التوبَة: 118]، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا حَلَفَنَا عَنِ الْغَرْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَحْلِيلُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّا حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقُتِلَ مِنْهُ.

الشيخ: وفي هذه القصة قصة الثلاثة: كعب وصاحبيه: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي- الدلالة العظيمة على وجوب الصدق، والحذر من الكذب، وأن عاقبة الصدق حميدة، وعاقبة الكذب وخيمة؛ ولهذا قال جل وعلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُوِّنُوا مَعَ

الصادقين [التوبه:119]، وقال جل وعلا في آخر سورة المائدة: **قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَقْعُدُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَاحٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حَالِدِينَ فِيهَا أَبْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** [المائدة:119].

وقال النبي ﷺ: عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.

وقال في هؤلاء الكاذبين: **يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** [التوبه:96].

المقصود أن الله جل وعلا أثني على الصادقين، ونَمَّ الكاذبين، وحدَّ من أخلاقهم الذميمة.

فالواجب على المؤمن في جميع أمره أن يتحرى الصدق، وأن يحذر الكذب في أعماله وأقواله، طاعة الله جل وعلا، والتمساً لمرضاته، وحذر من عاقبة الكذب، ولا يجوز الكذب إلا في الأمور التي رخص فيها ربنا: كالحرب، وحديث الرجل امرأته، والمرأة زوجها، والإصلاح بين الناس، كما جاء في الحديث الصحيح عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: لم أسمع النبي يُرخص في شيءٍ من الكذب إلا في ثلاثة: الإصلاح بين الناس، وال الحرب، وحديث الرجل امرأته، والمرأة زوجها. فلا بأس بهذا الكذب: للإصلاح بين الناس، أو في الحرب: الحرب خدعة، أو فيما يتعلق بين الرجل وأهله فيما يكون بينهما، إذا كذبت عليه أو كذب عليها للإصلاح بينهما فيما يتعلق بهما أنفسهما، وال الحرب كونه يُظهر شيئاً من الكذب، ليس فيه إخلالٍ بعهده، فليس فيه نقضٌ للعهد، وليس فيه خيانة، ولكن فيه مصلحة للمسلمين، وكان إذا أراد غزوةً ورَى بغيرها؛ حتى يهجم على العدو على غررةً، غير مستعدٍ، فإذا رأى في الكذب مصلحةً من غير إخلالٍ بعهده ولا غدرٍ فلا بأس، لأن يكون العدو متحصناً مثلاً في ظهرهولي الأمر ورئيس الجيش أنه قافق؛ حتى يخرج العدو، حتى يبرز، فيقول: إنما قافقون. فإذا مسّى وتجاوز المحلّ وخرج العدو من حصنه كرّ عليهم؛ لأنَّ هذا فيه مصلحة الجهاد، ومصلحة المسلمين، وليس فيه إخلالٍ بعهده، وإنما فيه مكيدة للعدو.

س:؟

ج: لا، لا يكذب في الرؤيا، جاء فيها الوعيد، لكن يصلح بين الناس بالأشياء الأخرى غير الرؤيا.

وقال عثمان بن سعيد الداري: حَدَّثَنَا عبد الله بن صالح: حَدَّثَنِي معاوية بن صالح، عَنْ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حَلَطُوا عَمَّا صَالَحَا وَآخَرَ سَيِّئًا [التوبه:102] قال: كانوا عشرة رهطٍ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَرْوَةٍ تَبُوكُ، فَلَمَّا حَضَرَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْتَقَ سَبْعَةً مِنْهُمْ أَنفُسَهُمْ بِسَوَارِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَ يَمْرُّ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَجَعَ فِي الْمَسْجِدِ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَهُمْ قَالَ: مَنْ هُؤُلَاءِ الْمُوْتَقُونَ أَنفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي؟ قَالُوا: هَذَا أَبُو لَبَابَةٍ وَأَصْحَابُ لَهُ تَخَلَّفُوا عَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْتَقُوا أَنفُسَهُمْ حَتَّى يُطْلَقُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَعْذِرُهُمْ، قَالَ: وَأَنَا أُفْسِمُ بِاللَّهِ لَا أُطْلَقُهُمْ وَلَا أَعْذِرُهُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ، رَغَبُوا عَنِي وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغُهُمْ ذَلِكَ قَالُوا: وَنَحْنُ لَا نُطْلِقُ أَنفُسَنَا حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يُثْوِبَ عَلَيْهِمْ، وَعَسَى مِنَ اللَّهِ وَاحِدَّ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ [البقرة: 37]، فَلَمَّا تَرَأَتْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَطْلَقُهُمْ وَعَذَرَهُمْ، فَجَاءُوا بِأَمْوَالِهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ أَمْوَالُنَا فَتَسْدِيقُ بِهَا عَنَّا، وَاسْتَغْفِرْ لَنَا. قَالَ: مَا أَمْرَتُ أَنْ أَخْذَ أَمْوَالَكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: حُذْ منْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُرَكِيْهُمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ يَقُولُ: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ صَلَاتِكُوكَ سَكَنٌ لَهُمْ [التوبه: 103]، فَأَخَذَ مِنْهُمْ الصَّدَقَةَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ.

وَكَانَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ لَمْ يُوتِقُوا أَنفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي، فَأَرْجُنُوا لَا يَدْرُونَ: أَيُعَذِّبُونَ أَمْ يُتَابُ عَلَيْهِمْ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَى قَوْلِهِ: وَعَلَى الْثَلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا إِلَى قَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ [التوبه: 117، 118]. تَابَعَهُ عَطِيَّةُ بْنُ سَعْدٍ.

الطالب: في الحاشية: إسناده ضعيف؛ لضعف عبد الله بن صالح، وعلي ابن أبي طلحة روايته عن ابن عباس رضي الله عنهما مُرسلة.

الشيخ: الأثر ضعيف لا شك؛ لأنقطعاه، ولضعف عطيه أيضاً العوفي، أما عبد الله بن صالح فهو فيه بعض النقص، ولكنه من شيوخ البخاري رحمه الله، وليس على إطلاقه ما قاله المحتشى، بل له بعض الأغلاط والنقص، وليس بمطلق الضعف، انظر كلامه في "التقريب" عن عبد الله بن صالح، كاتب الليث.

س:؟

ج: ضعيفة نعم.

الطالب: عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهنمي، أبو صالح المصري، كاتب الليث، صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة، من العاشرة، مات سنة اثنين وعشرين، وله خمس وثمانون سنة. (خت، د، ت، ق).

الشيخ: نعم، هذا هو الصواب، فيه بعض الأغلاط، وثبت في كتابه رحمه الله.

الطالب: إذا حدث من كتابه؟

الشيخ: نعم، ثقة من كتابه، لا بأس به.







